



بيان خطر الشرك والدعوة إلى التوحيد

(028) سورة القصص

الدرس الثالث عشر - شرح الآيات 61-64

2019-08-02

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا رب العالمين .

مقارنة بين صنفين من الناس الأول يؤمن بالغيب و الثاني يعيش لحظته :

مع اللقاء الثالث عشر من لقاءات سورة القصص ومع قوله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَفَمَنْ وَعَدْتُهُ وَعُدَّأُ حَسَنًا فَهُوَ لِأَقْبِهِ كَمَنْ مَتَّعْتَهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ

(سورة القصص : الآية 61)

الآن في هذه الآية يقارن ربنا عز وجل بين صنفين من الناس ، القرآن فيه نماذج : النموذج الأول : شخص يعيش على الوعد ، يؤمن بالغيب ، النموذج الثاني : يعيش لحظته ، يعيش واقعه ، يعيش الآن ، كيف هي الحياة الآن .



المؤمن ينظر إلى ما بعد اللحظة

هذان الصنفان موجودان في كل زمان وفي كل مكان ، صنف يعيش المستقبل ، وصنف يعيش الحاضر ، اللحظة ، غالب البعيدين عن الله عز وجل والمتفلسفين يعيش لحظته لا يفكر بالمستقبل ، قد يفكر بالمستقبل القريب الذي هو أولادي ماذا سيدرسون ؟ بالمستقبل القريب، لكن أن يفكر بالمستقبل البعيد ما بعد الموت فهذا لا يكون إلا للمؤمن ، فنحن بين أن نعيش اللحظة وبين أن نعيش المستقبل ، المؤمن يعيش ما سيكون ، وغير المؤمن يعيش ما هو كائن، الآن ما الذي يمتعني؟ أن أكل ما لذ وطاب ، ليس لدي مال يكفي ، أغش ، أسرق ، أبتز أموال الناس ، أرابي ، أحقق مالا فأكل ما لذ وطاب ، الآن ما الذي يمتعني؟ أن أنظر إلى شيء حرمه الله عز وجل ، موجود في كل مكان ، أفتح وأنظر ، يعيش اللحظة ، الآن أستمتع بالحياة ، المؤمن ينظر إلى ما بعد اللحظة ، ينظر إلى الآخرة فيعيش الغيب ، وهذا هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

(سورة البقرة : الآية 3)



الغيب هو الذي يميز المؤمن عن غير المؤمن

وأنا أقول : كل ربط دنيوي بين الطاعة وأثارها دون وضع الغيب في مكانه الصحيح فهو ربط خاطئ ، كيف؟ أي أن نطلق الكلام للناس أنه إذا أنت أطعت الله في الدنيا فلك المال الذي تريد ، والزوجة التي تحب ، والمكانة التي تريد ، وكل شيء لك في الدنيا ، فقط أطع الله عز وجل ، تماماً ، هذا الربط خاطئ بهذا الشكل ، نعم ربما تثمر طاعة الله عز وجل في الدنيا توفيقاً وتيسيراً وهذا وعد به المؤمنون ، نعم ربما تثمر بعض المال الذي يكفيك ويكفي عيالك ، نعم ربما تثمر زوجةً صالحةً تسرك إن نظرت إليها ، نعم هذا ممكن ، لكن الغيب هو الذي يميز المؤمن عن غير المؤمن ، ربما تجد مؤمناً يطيع الله ويتلى ولا يجد أثر ذلك في دنياه ، وإنما الأثر في الآخرة ، فكل ربط يكتفي بالدنيا ، بأن الطاعة من أجل الدنيا ، والمعصية تشقيك في الدنيا هو ربط خاطئ ، هذه جزئية بسيطة ، أما الأصل فأنتي أطيع الله من أجل الآخرة ، من أجل حياة أبدية وليس من أجل الحياة الدنيا ، قد أطيع الله في الدنيا وأمرض ، الأنبياء ألم يمرضوا ؟ الأنبياء ألم يبتلوا ؟ ألم يقتلوا ؟ أيوب عليه السلام ألم يعيش في الضر ؟ مسه الضر سنوات وسنوات ، محمد صلى الله عليه وسلم خاف في الله وما خاف أحد مثله ، وأودي في الله وما أودي أحد مثله ، في الطائف ضربوه ، سخروا منه ، أغرخوا به صبيانهم ، إذا قضية أنني أعيش في الدنيا فأطيع فأخذ الأجر في الدنيا ليس هذا هو المطلوب .

سعي المؤمن إلى السعادة لا إلى المتعة واللذة :



المؤمن يتأثر بما يحيط به

نأتي إلى الآية: (أَقْمِنْ وَعَدِّنَا وَوَعَدْنَا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ) (لاقِيهِ) هذا اسم فاعل يفيد المستقبل ، فهو لاقيه مستقبلاً وليس الآن ، وعدناه (وَعَدْنَا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ) يوم القيامة ، هذا موعود ، يعيش على الوعد ، هذا صنف من الناس ، فتجده رغم ما يمر به من آلام ومصائب وأمراض وافتقار في الدنيا ، رغم كل ما يحصل له في الدنيا ، فهو لا يابه لهذه المصائب ، لا أقول : لا يتأثر بها ، لا ، أبداً ، المؤمن إذا جاء فقر يفتقر ، وإذا جاء مرض يمرض ، فهو يتأثر بما يحيط به ، وقد يحزن لما يحيط به ، والحزن مشروع مادام في القلب وليس باليد ولا باللسان ، لكن لا يابه بمعنى أنها لا تقعه ، ولا تحبطه ، ولا تثبطه ، لأنه ينظر إلى موعود الله عز وجل ، (أَقْمِنْ وَعَدِّنَا وَوَعَدْنَا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ) يوم القيامة ، (كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الدنيا متاع كمتاع الراكب ، كيف إذا أحدهم يريد أن يسافر وأخذ معه متاعه ، فهذا المتاع يكون معه في سفره ثم يلقيه ، فالدنيا متاع ، فرق كبير بين أن تُحصَل المتعة وأن تُحصَل السعادة ، المؤمن يسعى إلى السعادة لا يسعى إلى المتعة ، المؤمن يسعى إلى السعادة ولا يسعى لا إلى متعة ولا إلى لذة ، فهو إن عاش في الدنيا في مرض فهو في سعادة لقربه من خالقه ، ولو عاش في الدنيا في فقر فهو في سعادة لأنه يحقق هدفه الذي خلق من أجله ، أما الكافر فهو يمتع ولا يسعد ، أي يتمتع في الدنيا لكنه في شقاء دنيوي وأخروي ، أجمل مثال يضربه شيخنا الدكتور راتب جزاه الله خيراً على هذه الآية ، جداً جميل ويوضح مفهوم الآية تماماً : أن رجلاً توفي عمه بحدث سيارة وهو الوريث الوحيد ، ولم تكن متوقعة وفاته ، هو في مقبل عمره ، صغير ، فما كان يتوقع وفاته في هذا العمر ، لكنه توفي ، فانتقل ميراث عمه الضخم جداً إليه بلحظة واحدة ، هذا الرجل الذي ورث هو في الأصل رجل فقير جداً ، له دخل لا يكاد يكفيه إلى الخامس عشر من الشهر ، راتبه قليل ، وبينه مستأجر ، وحالته سيئة جداً ، وأولاده كثر ، ومصاريفه كبيرة ، توفي عمه فانتقل إليه المال ، لكن لأن عمه يعيش في دولة بعيدة ، وإجراءات الميراث تقتضي سنة كاملة من الإجراءات ، والمتابعات ، والمحامين ، والقوانين ، حتى ينتقل إليه هذا الميراث فهو يحتاج إلى وقت يبقو سنة كاملة ينتظر هذا المال ، الآن هو مازال في بيته المتواضع جداً ، ومازال بدخله القليل جداً ، ومازال مع أولاده الكثر الذين يحتاجون إلى مصاريف عالية ، ومازال في البيت المستأجر الذي يتابعه المؤجر برأس كل شهر ليدفع أجرته ، كل الأمور مازالت كما هي لكنه أصبح سعيداً ، لماذا أصبح سعيداً ؟ لأنه موعود ، فالحالة كما هي لكن الوعد الذي وعده بمال فقير سيحقق به كل ما يصبو إليه ، جعله ينتقل من حالة النعاسة إلى حالة الفرح والسعادة ، هكذا هو المؤمن يعيش الواقع من غلاء أسعار ، ومن حرارة في الجو ، ومن تسلط الأعداء ، ومن بعض الفقر أحياناً :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَتَقْصِي مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرَاتِ

(سورة البقرة : الآية 155)

ولكنه في داخله يعيش سعادة تتبع من الوعد الذي وعده الله إياه ، بأنك ما دمت في طاعتي فلك يوم القيامة شيء مختلف تماماً (ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر)

{ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ

وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ دُخِرَا بَلْهُ مَا أُطِيعْتُمْ عَلَيْهِ) ثُمَّ قَرَأَ : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) }

(رواه البخاري)

(أَقْمِنْ وَعَدِّنَا وَوَعَدْنَا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ) في الآخرة (كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

العطاء والمنع من الله هو ابتلاء فقط :



الحياة التي تنتهي بالموت هي دنيا

قلنا في اللقاء السابق : الحياة الدنيا وليست العليا هذا أدنى مستوى في الحياة ، الحياة التي مستواها عال جداً هي الحياة الأخرية التي فيها أبد ، أما الحياة التي تنتهي بالموت فهي دنيا ، وكل عطاءٍ ينتهي بالموت ليس بعتاء ، كل عطاءٍ ينتهي بالموت ليس عطاءً يليق بكمال الله ، فلا تنتظر عطاءً في الدنيا إلا بقدر يسير ، وإن جاءك عطاءٌ فأعط مما أعطاك الله ، هذا قارون هل كان الله يحبه عندما أعطاه (مَا إِنَّ مَقَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ) :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَأَتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَقَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ

(سورة القصص : الآية 76)

إن قلت : كان يحبه ثم خسف به الأرض فقد كذب من قال ذلك ، وإن قلت : لا يحبه ، إذاً هو لا يعطي الدنيا لمن يحب ، جل جلاله يعطيها لمن يحب ولمن لا يحب ، إذاً هل هي مقياس ؟ إذا كانت تعطى للجميع فهل هي مقياس محبة الله لعبده ؟ لا ، أعطاها لقارون ، وأعطاهها لعبد الرحمن بن عوف ، ولعثمان بن عفان ، إذاً أعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب إذاً هي ليست مقياساً على أن الله يحبك إذا أعطاك الدنيا :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا

(سورة الفجر : الآية 15-16-17)



العتاء والمنع هو ابتلاء فقط

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) ما الجواب؟ (كلًا) ، (كلًا) : أداة ردع وزجر ونهي ، (كلًا) كلامكم غير صحيح ، لا الذي ظن أن العطاء إكرام من الله ، ولا الذي ظن أن المنع حرمان من الله ، كلاهما مخطئ ، هذا العطاء والمنع هو ابتلاء فقط ، ابتلاء ، ليس إكراماً ولا إهانة ، إن استخدمته في رضا الله أصبح إكراماً ، وإن استخدمته في معصية الله أصبح إهانة ، والمنع إن صبرت عليه أصبح إكراماً ، وإن جزعت وتكلمت بما لا يرضي الله أصبح إهانة ، أما هو في حد ذاته فليس عطاءً وليس إكراماً وليس إهانة .

من تمتع بالدنيا كما يريد سيأتي مكرهاً للوقوف بين يدي الله للمحاسبة :



يأتي ذليلاً مهاناً ليلقى حسابه

(ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) مُتَّعَ فِي الدُّنْيَا كَمَا يَرِيدُ ، وَلَيْسَ مَا يَرِيدُ ، وَاسْتَمْتَعَ بِمَا يَرِيدُ دُونَ أَيِّ ضَابِطٍ (ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) لِمَاذَا قَالَ (مِنَ الْمُحْضَرِينَ) مَا قَالَ مِنَ الْحَاضِرِينَ أَوْ مِمَّنْ سَوْفَ يَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ؟ الْمُحْضَرُ إِكْرَاهًا ، الْمُحْضَرُ بِأَنِّي إِكْرَاهًا لَا يَأْتِي طَوْعِيَّةً لِأَنَّهُ لَا يَرِيدُ هَذَا الْمَوْقِفَ ، فَهُوَ مُحْضَرٌ وَلَيْسَ حَاضِرًا ، يَحْضُرُ أَيُّ يَأْتِي ذَلِيلًا مَهَانًا لِيَلْقَى حِسَابَهُ ، ظَلَمَ ، وَاعْتَدَى ، وَنَهَبَ ، وَأَكَلَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَاعْتَدَى عَلَى حَقُوقِ اللَّهِ ، وَعَلَى حَقُوقِ الْعِبَادِ ، وَلَمْ يَفْقَهُ لِمَاذَا هُوَ فِي الدُّنْيَا فَانطَلَقَ بِدَافِعٍ مِنْ شَهْوَتِهِ ، فَسَوْفَ يَحْضُرُ لِلْحِسَابِ وَالْعَذَابِ (ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) هَذَا يَدُلُّ عَلَى الْإِكْرَاهِ ، لَنْ يَأْتِيَ طَوْعِيَّةً سِيَّئًا مَكْرَهُاً لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ .

إذاً هذه الآية توازن بين صنفين من الناس كما قلنا صنف يعيش اللحظة ، وصنف يعيش المستقبل ، فمن يعيش المستقبل يتذكر دائماً وعد الله له ، كلما ألمت بك في الدنيا مصيبة تذكر وعد الله ، لا تنس وعد الله ، إياك ، إن نسيته أحبطتك المصيبة ، إن نسيته فهرك المرض ، إن نسيته فهرك الألم ، أما إن تذكرت موعود الله فتنقلب المحنة إلى منحة ، والبليّة إلى عطية ، لأنك تتذكر أنّ موعود الله عز وجل أعظم من أي مشكلة ، فال مؤمن أكبر من أكبر مشكلة ، وغير المؤمن أصغر من أصغر مشكلة .

الأمر بيد الله تعالى وحده و موعود الله عز وجل لا بد آت :

الآن تدخل السورة ، سورة القصص ، طبعاً نحن قلنا سابقاً إن سورة القصص تتحدث في الأصل عن الوعد ، هي في الأصل تتحدث عن الوعد ، من بدايتها تتحدث أنّ الله عز وجل سينصر أوليائه ، هذا وعدٌ من الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ

(سورة غافر : الآية 51)

فهي تتحدث عن وعد من وعود الله من بدايتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ مِصْرًا وَمِنْهُمْ يَدِّخُ أُنْيَاءَهُمْ وَيَسْخِجِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ

(سورة القصص : الآية 4-5)



الأمور بيد الله تعالى

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ) إلى أن قال : (وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ) وروى لك قصة موسى ، وبين لك كيف أنه منَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ ، وكيف أنه أهلك فرعون ، تماماً ، الآن تنتقل السورة إلى الحديث عن قضية مهمة جداً وهي التوحيد ، بأن الأمور بيد الله تعالى ، وهي قضية أساسية لكن في هذه اللحظة ، وفي هذه الآونة السورة متفرعة عن قضية الوعد وقضية النصر ، فالذي يعلم أن الأمور بيد الله تعالى وحده يوقن بأن موعود الله عز وجل لا بد آت ، فهو الواحد جل جلاله لا ينازعه في ملكه أحد .

اشترك معظم الخلق في توحيد الربوبية :

الآن السورة ماذا يقول ربنا عز وجل؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

(سورة القصص : الآية 62)

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) ، أما قال : (ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) هذا اليوم نفسه (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) ينادي من؟ ينادي هؤلاء المحضرين ، المكربين إلى الحضور ، الذي لا يريدون الحضور أصلاً ، مثل مدرسة أقامت حفلاً في ختام العام الدراسي لتوزيع النتائج ، وهناك طلاب نمي إلى مسامعهم أو علموا من حالهم أنهم راسبون هذا العام ، الآن والده يدفعه إلى الحضور ، والده متأمل لعله ينجح ، فعندما يأخذه إلى القاعة لحضور حفل الختام كأنما يساق إلى الموت لا يريد أن يحضر ، أما الأول الذي يعلم أنه غالباً الأول على الصف أو الثاني على المدرسة أو كذا فيذهب مسرعاً فهو ليس محضراً وإنما حاضر ، وأما الثاني فكأنما (يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ) :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ

(سورة الأنفال : الآية 6)



سؤال هل يحتاج إلى جواب

لأنه لا يريد هذا الموقف ، الموقف يجرجه ، هذا حال الكافر يوم القيامة بين يدي الله ، (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) في هذا اليوم وقفوا وأحضروا فيناديهم ربنا عز وجل (قِيْلُ أَيْنَ شُرَكَائِي) ؟ هذا السؤال هل يحتاج إلى جواب ؟ لا ، هذا السؤال للتوبيخ والتفريع ، مثل طالب أمضى عامه خلف الأجهزة اللوحية فجاء الامتحان ولم يدرس شيئاً فرسب في الامتحان ، وصدرت النتائج ، وعلم الأب برسوبه ، فقال له والده : أين الآي باد (iPad) ؟ فوقف الابن وقال له : لحظة في عرقتي سأحضره لك ، فيغضب الأب لأن الابن لم يفهم شيئاً من السؤال ، فالسؤال لا يريد الآي باد (iPad) يريد أن يذكرك بأن هذا (iPad) هو الذي جعلك ترسب في آخر العام ، ولو تركته جانباً لنجحت ، فهذا سؤالٌ لا يحتاج إلى جواب ، ولو أجاب عليه لاستغفر والده ، ولأكل ضرباً مبرحاً ، وتحول من العتاب إلى العقاب ، إذا (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ قِيْلُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) والزرع مطبئة الكذب ، هذا الزرع ، ومن قال : زعموا فقد بدأ بالكذب ، يزعم أن فلاناً كذا ، (أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) أي تزعمون أنهم - هنا أغفل المفعول به - المفعول به الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لي في الخلق أو في التدبير ، معظم الناس اليوم لا يزعمون لله شركاء في الخلق ، فتقول له : من خلقك ؟ يقول : الله ، وهذا ما فعله كفار قريش :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ

(سورة الزمر : الآية 38)



توحيد الربوبية يشترك به معظم الخلق

فهم أمينا بأن الله خالق ، ولكن عندما جاؤوا إلى التَّصَرُّفِ في الكون زعموا لله شركاء يُصَرِّفُونَ معه الكون ، فلما حاجهم وأقروا بأن الله هو الخالق قال : (إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ) هذا هو التوحيد ، فتوحيد الربوبية يشترك به معظم الخلق اليوم حتى غير المسلمين لا ينكره إلا الملحدون ، والملحدون منتحرون عقلياً ، أي هؤلاء لا يُلقَى لهم بال ، إما بعضهم منتفع بالحاده ، وإما بعضهم - نسأل الله الهداية - عقلياً يوجد معه مشكلة ويحتاج إلى علاج ، لأنه ينظر إلى هذا الكون فيقول : ليس له خالق ، هذه مشكلة عقلية ، لكن معظم الناس اليوم من المسلمين وغير المسلمين قد يشركون في إشراك الألوهية ، بمعنى أن الله خلقنا من فوق لتحت ، المعادلة صحيحة ، من فوق المعادلة صحيحة ، من الذي ينزل المطر ؟ الله ، من الذي يرسل لكم رزقكم ؟ الله ، من تعبدون ؟ المال ، والجاه ، والسلطان ، والله - والعياد بالله - (تَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا) :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا

(سورة الإسراء : الآية 43)

فيؤمن بأن الله هو الذي خلق ، وهو الذي يميت ، وهو الذي يعطي ، وهو الذي يربي ، وهو الذي ينزل الأمطار ، لا ينكر ذلك إنسان عاقل ، لكن عندما يتوجه لا يتوجه إليه ، وهنا المصيبة الكبرى ، فهذا يقول : (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُزْعَمُونَ) لا يشترط أنهم كانوا يزعمون أنهم شركاء خلقوا مع الله ، أو رزقوا مع الله ، لكنهم كانوا عندما يتوجهون :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ

(سورة الزمر : الآية 3)



الشرك الخفي

يتوجهون إلى أصنامهم بدلاً من أن يتوجهوا إلى خالقهم ، واليوم من الشرك الخفي أن يتوجه الإنسان إلى منصبه ، وإلى لباسه ، وإلى طعامه ، وإلى شرابه ، وهذا الكلام ليس من عندي ، هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الْقَطِيقَةِ - الْقَطِيقَةُ : اللباس -" أي يقول لك : هذا الطقم من ماركة كذا أو من ماركة كذا ويتعالى به .

{ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ ، وَالدَّرْهَمِ ، وَالْقَطِيقَةِ ، وَالْحَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ }

(صحيح البخاري)

فعندما يقول تعالى : (أَيْنَ شُرَكَائِيَ) فهؤلاء غالباً ليسوا مزعومين بأنهم شركاء في الخلق ، لكن زعموهم شركاء في التدبير فانجهوا إليهم وكأنهم (أُرَبَّاءًا مِّن دُونِ اللَّهِ) تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أُرَبَّاءًا مِّن دُونِ اللَّهِ

(سورة التوبة : الآية 31)

فيقول : (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُزْعَمُونَ) هذا لا يحتاج إلى جواب كما قلنا ، هو توبيخ وتفرغ ، وهم الحجة قائمة عليهم ، فأقام الحجة عليهم بهذا السؤال زيادةً في الإنكار عليهم ، وزيادة في الألم والعذاب .

ورد في بعض الأحاديث أنَّ الكافر يوم يقف بين يدي الله يقول :

{ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ الْعَارَ لَيَلْتَرُمُ الْمَرْءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقُولَ : يَا رَبِّ لِإِسْأَلِكَ بِي إِلَى النَّارِ أَيْسَّرَ عَلَيَّ مِمَّا أَلَعَى ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ مَا فِيهَا مِنْ شِدَّةِ الْعَذَابِ }

(رواه الألباني)

وقفه العتاب للعاصي المذنب أسوأ عليه من العقاب لانحرافه عن جادة الصواب :

أحياناً العاصي المذنب وقفه العتاب هي أسوأ عليه من العقاب ، لأنه يستذكر كم كان مسيئاً عندما ترك العبادة وانحرف عن جادة الصواب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَيَقُولُ آيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

(سورة القصص : الآية 62)

أي في الدنيا :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِبْرَاءَنَا يَعْْبُدُونَ

(سورة القصص : الآية 63)



الحق هو الشيء الثابت

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) حَقٌّ : أي ثبت ، قلنا : الحق هو الشيء الثابت ، فَحَقَّ الْقَوْلُ : أي ثبت ، بمعنى آخر بالمعنى الحديث صدر الحكم ، (حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) أي صدر الحكم ، انتهى ، الآن قبل أن نعرعر الحكم لم يصدر ، وأنت لا يجوز لك أن تصدر أحكاماً على الناس ، الله وحده يصدر الأحكام ، لكن ربنا عز وجل حتى قبل أن يعرعر العبد لا يصدر عليه حكماً مع أنه جل جلاله عالم بما سيكون ، علم كشف لا علم جبر ، لكن لا يصدر حكمه ، (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) أي ثبت ، انتهى ، المسألة أصبحت محسومة ، إنسان محكوم بالإعدام صدر الحكم ، استأنف ، صدر حكم الاستئناف بالتنفيذ ، صدق عليه المفتي ، في بعض البلاد يصدق المفتي ، رئيس الجمهورية وإلخ انتهى صدر الحكم ، الآن التنفيذ عدلاً ، الآن جاؤوا به ووضعوه على جبل المشنقة ، الآن يريد أن يبكي فليبك ، إذا أراد أن يعتذر ، أنا أسف لم أكن أقصد فليعتذر ، إذا بقي صامتاً ولم يتكلم ولا بكلمة أفضل له لأن القرار صدر ولم يعد هناك معنى لئن يستعطف المحكمة ، أي محكمة ؟ القرار صدر ، ولم يعد بمقدور أحد أن يبعد عنك هذا الحكم ، هذا في الدنيا ، في واقع الدنيا ، وعندما يأتي يوم القيامة (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) أي صدر الحكم وأصبح واقعاً وهو الآن قيد التنفيذ ، فليس هناك أي شيء يدعو لترك الحكم ، (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ) مَا كَانُوا إِبْرَاءَنَا يَعْْبُدُونَ) الآن يحاولون اللحظة الأخيرة وقد حَقَّ عليهم القول أن يعتذروا لأن موقفهم بين يدي الله أولاً : فيه من الذل والمهانة ما فيه ، ثانياً : لأنهم يعلمون ما ينتظرهم من العذاب ، لهذين السببين معاً ، لأن الموقف مهين ، ولأن العذاب بعده أليم ، فهم لهذين السببين يحاولون اللحظة الأخيرة أن يعتذروا بشيء لعله يخفف عنهم العذاب ، ما هذا الشيء؟ (رَبَّنَا) هم يعترفون بربوبيته جل جلاله (رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا) أي أضللنا ، أغوينا من الغواية وهي الضلالة ، (هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا) من الناس (أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا) أي نحن أضللناهم كما ضللنا ، نحن لم يكن لنا سلطانٌ عليهم ، نحن عندما ضللنا ما كان هذا إجباراً من أحد ، وإنما كان خياراً منا ، وهؤلاء لما ضلوا ضلوا بخيارهم ، أي وكأنهم يقولون : يا رب لا تحاسبنا بما فعلوا يكفنا ما بنا ، (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا) هؤلاء الذين أضللنا فهم في كلامهم يعترفون بأنهم أضلوهم ، ثم يعودون ليقولوا : نحن عندما أضللناهم كما ضللنا نحن ، فهم ونحن سواء فليحاسب كلٌ على عمله ، (تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ) أي نحن يا رب نبرأ إليك من هؤلاء ، يكفينا حسابنا ، يكفينا ما بنا ، (تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِبْرَاءَنَا يَعْْبُدُونَ) هؤلاء لم يكونوا يعبدوننا نحن وإنما كانوا يعبدون شهوراتهم ، وإنما كانوا يعبدون شياطين الإنس والجن ، وإنما كانوا يعبدون مصالحهم وأهواءهم ، (مَا كَانُوا إِبْرَاءَنَا يَعْْبُدُونَ) فلا تحاسبنا بجريرتهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ

(سورة القصص : الآية 64)



الرؤية هنا لا تشترط أن تكون بصرية

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) وهذه نتيجة معروفة مسبقاً ، أي لا يمكن للشريك أن يستجيب لاسيما في هذه اللحظة الفاصلة والراهنة ، هؤلاء الشركاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً فكيف يملكون لغيرهم ؟ (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) ما معنى ذلك ؟ (رَأَوُا الْعَذَابَ) تحتمل أن تكون في الآخرة الآن (وَرَأَوُا الْعَذَابَ) في الآخرة (لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) أي إلى سبيل يُنجيهم من العذاب ، ولكنهم لا يهتدون ، لما (رَأَوُا الْعَذَابَ) في الآخرة أمامهم تمنوا لو أن هناك سبيلاً يهتدون إليه فينجيهم من العذاب لكنه غير موجود ، هذه أمنية (لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) حرف تمنى (وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) لنجوا من هذا العذاب ، لكنهم لن يهتدوا إلى سبيل ، فالعذاب محيط بهم من كل جانب ، هذه في الآخرة ، ممكن أيضاً (وَرَأَوُا الْعَذَابَ) في الدنيا لما رأوا أقواماً أهلكهم الله ، والرؤية هنا لا تشترط أن تكون بصرية وإنما رؤية معنوية ، لما أخبرهم الله تعالى عن مهلك قوم عاد ، ألم يروا العذاب ؟ لما أخبرهم الله تعالى عن قوم نمود وكيف أخذتهم الصيحة ، ألم يروا العذاب ؟ فلما (رَأَوُا الْعَذَابَ) في الدنيا كان حرياً بهم أن يهتدوا إلى الله قبل أن يقفوا هذا الموقف بين يدي الله ، فالآية إذاً (وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) تحتمل الدنيا وتحتمل الآخرة ، فهم (رَأَوُا الْعَذَابَ) في الآخرة فلم يجدوا سبيلاً يهتدون إليه للخروج من العذاب ، ولما رأوا بأعينهم أو برؤية معنوية عذاب من كان قبلهم ممن عصوا الله تعالى لكان خيراً لهم أن يهتدوا إلى الله قبل أن يقفوا هذا الموقف بين يدي الله تعالى ، (وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) .

التوحيد رأس العلم و نهايته :



رأس العلم ونهاية العلم التوحيد

إذا أعود عوداً على بدء ، هذه الآيات : (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ) (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ) هذه الآيات تتحدث عن قضية مفصلية في ديننا وهي التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، رأس العلم ونهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل العبادة ، قال تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ

(سورة الأنبياء: الآية 25)

وكل الأنبياء جاؤوا بحقيقة التوحيد ، وبيوم القيامة لا ينجيك إلا التوحيد ، والتوحيد ليس قولاً نقوله ، هو عقيدة نعتقد بها وتعتقد في قلبك ، هو إيمان يقيني بالله ، لذلك ما قال تعالى :
فقل لا إله إلا الله ، وإنما قال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

(سورة محمد الآية 19)

ينبغي أن تعلم (أَنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ما معنى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ؟ أي لا مُتَصَرِّف ، ولا مُدَبِّر ، ولا مُعْطِي ، ولا مُنْعِز ، ولا خَافِض ، ولا رَافِع إلا الله ، كل ما تراه عينك من البشر من عطاء ومنع ، وخفض ورفع ، إنما هم عصي بيد الله تعالى تحركهم يد القدرة الإلهية ، بالمسرح القديم أيام مسرح العرائس إلى الآن يوجد في بعض البلدان ، اليوم أصبح هناك مئة وسيلة للعرض ، لكن ما زال له نكهة خاصة فيعملوه أحياناً ليشدوا الأطفال به ، فأنت ترى على المسرح أشخاصاً يتحركون أي لعب ودمى تتحرك ، الطفل يظنها تتحرك بنفسها فينشد لها ، الأكبر عمراً يعلم أن هناك خلف الستار من يمسك بها ويحركها ، غير المؤمن لضعف إدراكه يظن أن هذه القوى في الأرض إنما تتحرك بذاتها ، وبقوتها ، وببطشها ، وجبروتها ، أما المؤمن فيعلم أن هناك يداً تحركها (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى

(سورة الأنفال : الآية 17)



الإيمان أن لا ترى في الكون قوة إلا الله (قَلِمٌ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ) فيعلم أن ما يجده من هؤلاء البشر إنما هم كالدمى تماماً في مسرح العرائس ، تحركهم يد القدرة الإلهية كيفما شاءت ، هذا هو الإيمان ، الإيمان أن تصل إلى هذه المرحلة ألا ترى في الكون قوة إلا الله ، فإن أصابك خير فمن الله ، وإن أصابك شر فمن الله لكن السبب من نفسك ، لكن كله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ

(سورة النساء : الآية 78)



النشر نسبي ينبع من العبد

الخير والنشر بيد الله جل جلاله ، لكنه يتحكم في الخلق بالخير المطلق جل جلاله ، أما النشر فهو نسبي ينبع من العبد فيأتي جزاؤه من الله تعالى شراً ، هذا معنى : وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ ، النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : " وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ " . ما معنى ليس إليك ؟ هل معنى أن الشر يفعله غير الله ؟ لا ، لكن سببه ليس إليك فالله لا يتدنى عباده بالشر ، وإنما سلوكهم في الحياة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
طَهَرَ الْقَسَادُ فِي النَّبْرِ وَالنَّخْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

(سورة الروم : الآية 41)

فهو موطّف لخيرٍ فما بعده (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) هذا معنى : وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ ، لكن كل الأمر بيد الله (قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ) تماماً ، فهذه الآيات إذاً من سورة القصص تحدثت عن قضية التوحيد ، وقضية التوحيد هي أخطر ما في ديننا ، كما في الحديث القدسي :

{ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا بَنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي عَقَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا بَنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ دُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَعَفَرْتَنِي عَقَرْتُ لَكَ ، يَا بَنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوِ اتَّيْتَنِي بِقَرَابِ الْأَرْضِ حَطَّابًا ثُمَّ لَفَيْتَنِي لِشُرْكَ بَيْنِي سَبِيئًا لَأَتَّبِعَنَّكَ بِقَرَابِهَا مَغْفِرَةً }
(رواه الترمذي)

فمع التوحيد ينفع قليل العمل وكثيره ، ومع الشرك لا ينفع لا قليل العمل ولا كثيره ، وإنّ الله تعالى لا يحب العمل المشترك :

{ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا أَعْتَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا اشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ عَمِلِي ، تَرَكْتُهُ وَشُرْكَهُ }
(صحيح مسلم)



الله تعالى يريدك خالصاً له

ولا يقبل على القلب المشترك ، فإذا كان قلبك معلقاً بالله وبغير الله ، فالله تعالى لا يجعلك تقبل عليه ، ولا يقبل عليك ، لأن قلبك معلقٌ بغيره ، الله تعالى يريدك خالصاً له :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ

(سورة الزمر : الآية 11-12)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ

(سورة الزمر : الآية 2)

{ اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفِكَ الوجوهَ كُلَّهَا }

(أخرجه ابن عدي)

من جعل الهموم كلها همماً واحداً ، همَّ آخرته ومعاده ، كفاه الله الهموم كلها .

التوحيد ألا ترى إلا الله :



التوحيد ألا ترى إلا الله

في زمن الخليفة يزيد بن معاوية كان له وال على العراقيين ، العراقيان هما الكوفة والبصرة ، الكوفة والبصرة تسميان العراقيين ، فكان له وال هو ابن هبيرة ، هو وال على الكوفة والبصرة ، على العراقيين ، فجاء لابن هبيرة تعليمات من يزيد ، نظر فيها فإذا في تنفيذها إغضب لله تعالى ، إن نفذها أغضب الله ، وإن ترك تنفيذها فسيغضب يزيد لأنه الخليفة وقد أمر وأمره نافذ ، فما كان منه وهكذا كانت عادة الولاة أن يستنصحو العلماء ، فكان العلماء لا يقفون بباب الأمراء وإنما يستدعون مكرمين ليُشيروا على الأمراء فيأتمر الأمراء بأمر العلماء وليس العكس ، فكانت الأمة بخير ، فجاء بهما واستفتاهما ، بمن جاء ؟ جاء بتابعين جليلين هما عامر الشعبي والحسن البصري ، فبدأ بالشعبي فسأله : جاءني كتاب من يزيد إن نفذته أغضبت الله تعالى ، وإن تركت تنفيذه غضب يزيد فماذا أفعل ؟ فقال له الشعبي كلاماً فيه ملاحظة وملاينة ومسايرة ، لا أدري ماذا قال له لكن أتخيل أنه قال له : أمسك العصا من الوسط، حاول أن تنفذ بعض الأمر وأن تترك بعضه ، حاول ألا تغضب يزيد دون أن تغضب الله ، أي محاولات ليست المفارقة والمفاصلة وإنما الموازنة ، ثم التفت إلى البصري فقال : وما تقول يا أبا سعيد ؟ قال يا ابن هبيرة : خف الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله ، فإن الله يمنعك من يزيد ، أي عندما يريد يزيد أن يؤذيك الله يمنعك منه ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ، واعلم يا ابن هبيرة أنه يوشك أن ينزل بك ملكان غليظان شديدان فيزيلانك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، وهناك لن تجد معك يزيد ، وإنما ستجد عمك الذي خالفت به رب يزيد ، قال : فقال ابن هبيرة عن الشعبي ، ترك الشعبي وما قاله له مع أن كلامه فيه ملاينة وملاطفة ، واتجه إلى البصري فجعل يكرمه ، ويتودد إليه ، فخرج الشعبي والبصري إلى الناس ، فقال الناس : ما الذي حصل ؟ فقام الشعبي - انظروا إلى إخلاص الشعبي رغم أنه أخطأ في الملاينة والمسايرة في غير موضعها لكنه علم ذلك فوق - وقال : أيها الناس والله ما قال الحسن البصري لابن هبيرة كلاماً أجهله ، كل الذي قاله من التوحيد أعرفه - المعلومات أعرفها - ولكنني أردت فيما قلته وجه ابن هبيرة ، وأراد الحسن فيما قاله وجه الله ، فأقصاني الله من ابن هبيرة - أبعدني عنه - وأدنى الحسن منه ، يا أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله على خلقه في كل مقام فليفعل، هذا هو التوحيد ، التوحيد ألا ترى إلا الله ، وهذا فحوى الآيات التي بين أيدينا اليوم .

والحمد لله رب العالمين